بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين** ﴾ الحمد لله ذي المحامد كلها ، وذي الفضائل كلها ، وذي النعم كلها ، له الحمد في الأولى والآخرة ، ولله الحكم وإليه ترجعون ، استغرق حمده الأزمنة ، واستغرق حمده الأمكنة ، ﴿ **وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** ﴾ ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله ، وصفيه وخليله ، وخيرته من خلقه ، صل الله عليه ، وعلى آله وصحبه ، ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد مر معنا فيما سبق ، تفسير الاستعاذة ، وتفسير البسملة ، وتفسير قوله تعالى :

﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ **،** وأما قوله جل وعلا : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ فإن الرحمن الرحيم ، اسمان من أسماء الله الحسنى ، وهما في هذا الموضع من حيث العربية نعتان لاسم الله ، نعتان للفظ الجلالة الله ، وهما نعتان للذات المدلول عليها ، باسم الجلالة الله ، ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ نعت أول ، ﴿ **الرحمن** ﴾ نعت ثاني ، ﴿ **الرحيم** ﴾ نعت ثالث ، ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ نعت رابع .

والرحمن الرحيم ، اسمان من الأسماء الحسنى تتضمنا صفة الرحمة لله جل وعلا ، وتتضمن اسم الله الرحمن لصفة الرحمة ، أبلغ وأعظم وأوسع متعلقا من تضمن اسم الله الرحيم لتلك الصفة ، وقد مر معنا أن الرحمن : هو المتصف بالرحمة الواسعة ، التي استغرقت الأزمنة في الدنيا والآخرة ، والرحمة من صفات الله الذاتية .

والرحيم : تضمن صفة الرحمة المتعلقة بالآخرة ، وعلى هذا دلت تفاسير السلف ، كما ساق ذلك ، ابن كثير ، رحمه الله ، من أن الرحمن هو رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة .

والله جل وعلا موصوف بأنه ذو الرحمة ، قال جل وعلا : ﴿ **ورحمتي وسعت كل شيء** ﴾ فرحمته جل وعلا وسعت كل شيء ، ولفظ شيء اسم لما يصح أن يعلم ، ورحمته جل وعلا ، وسعت كل شيء ، ومعلوم أن قوله : ﴿ **العالمين** ﴾ فيما سبق

من كلامنا عليه : أنه جمع العالم ، والعالم هذا سميت به أنواع العوالم ؛ لأن بها عُلم أن الله جل وعلا هو الخالق المتفرد بالخلق ، والرزق ، والأحياء ، والإماتة ، وأنواع معاني الربوبية ، وهذا وجه مناسبة ، لذكر اسم الله الرحمن بعد قوله :
 رب العالمين ، وذلك أنه متضمن لصفة الرحمة التي تعلقت بكل شيء ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة .
أما في الدنيا : فإن متعلق الرحمة كل شيء ، كما قال :
ورحمتي وسعت كل شيء ، ورحمة الله جل وعلا ظاهرة في أنها شملت العرش ، والعرش ومن حوله ، والكرسي وما تحته ، والسماوات إنما قامت برحمة الله جل وعلا ، ومن في السماوات ، وما في السماوات إنما قام برحمة الله جل وعلا ، لا غنى للسماوات ، ومن فيها ، وما فيهن عن رحمة الله جل وعلا طرفة عين ، **إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ما في السماء الدنيا من أنواع العوالم ، من أنواع ما يطير من الأحياء ، وما فيها من أنواع ما خلق الله جل وعلا ، مما نعلم من الهواء ، ونحوه ، ومما لا نعلم ، كل ذلك من رحمة الله جل وعلا ، بالمخلوق نفسه ، ومن رحمة الله جل وعلا بمن يستفيد وينتفع بتلك المخلوقات .
إذا نظرت إلى الأرض ، بأنواعها من جبل ووداي وسهل وحزن وشجر ، جميع معالمها فإنما هي برحمة الله جل وعلا قامت ، كل هذا يدل عليه هذا الاسم الرحمن ولهذا قال : **رب العالمين الرحمن** لأن رحمته تعلقت بكل العالمين جل وعلا .
إذا نظرت لمن في البحر ، لما في البحر ، وبالبحر ، وإلى البحر نفسه ، وإلى أنواع ما في الأرض ، وما تحت الأرض من الأحياء ، وما فيها من أنواع مخلوقات الله جل وعلا ، الحية وغير الحية كل ذلك إنما يعيش برحمة الله جل وعلا ، وهذا يبلغ مبلغ عظيما في قلب العبد ، في معرفة أثار الرحمة ، وأثار اسم الله الرحمن ، بقدر ذلك . ولقد حكى ابن جرير ، رحمه الله تعالى في التفسير : الاتفاق على تعلق الرحمة التي في اسم الله الرحمن بالدنيا والآخرة ، وأما اسم الله الرحيم فهو متعلق بالآخرة .
ولهذا نقول : إن شمول الكافر لرحمة الله جل وعلا ، أو إن شمول الرحمة للكفار ، غنما هو في هذه الدنيا ، فهم داخلون في متعلق الرحمة في قوله : **الرحمن ،** الكافر ، مرحوم في هذه الدنيا بأنواع الرحمة ، قال جل وعلا : **ومن كفر فأمتعه قليلا**

 الكافر يمتع في الدنيا بأنواع المتاع ، ويعيش عيشة ربما كانت هنية طيبة ، وهو كافر يحمل الشرك بالله ، يحمل الكفر بالله جل جلاله ، والعياذ بالله ، ولكن رحمة الله جل وعلا ، عمت في الدنيا كل شيء .
وأما في الآخرة ، فإن اسم الرحمن يشمل رحمة الله جل وعلا للمؤمنين في الآخرة ؛ لأنه في الآخرة الرحمة بالمؤمنين ، قال جل وعلا : **وكان بالمؤمنين رحيما** وقال : **الرحيم** والرحيم ، بالمؤمنين في الآخرة ، وها هنا وقع تكرار في المعنى ، مع تنوع اللفظ ، الرحمن يدل على رحمة الله بالمؤمنين في الآخرة ، وعلى رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الدنيا ، الرحيم يدل على رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين بالآخرة ، فتكرر ذكر رحمة الله للمؤمنين في الآخرة ، بسم الله الرحمن ، وباسم الله الرحيم ، وتكرر ذكر رحمة الله جل وعلا بالمؤمنين في الدنيا ، الرحمة الخاصة بهم ، بقوله : **رب العالمين** ، وبقوله : **الرحمن** ، ولهذا قال أهل العلم : إن هذين الاسمين ، الرحمن الرحيم ، يفتحان لمن عقل أوسع أبواب المحبة لله جل وعلا ، ويفتحان لمن عقل أوسع أبواب الرجاء لله جل وعلا ، وقد قال الله جل وعلا في الحديث القدسي : ((أنا عند ظن عبدي بي ، فليظن بي ما شاء)) .
وذكرت لكم فيما سلف ، أن قوله : **رب العالمين** يفتح باب المحبة ، وأن قوله هنا : **الرحمن الرحيم** يفتح باب الرجاء في القلب .
ومبحث الأسماء والصفات ، يبحثه كثير من المفسرين في هذا الموضع ، والذي نذكر منه هو رحمة الله جل وعلا ، وتكرير إثباتها ، وذلك أن الرحمة معنى قام بالله جل وعلا ، الرحمة صفة ذاتية ، قامت بالله جل وعلا .
والرحمة ، وما كان من جنسها من الصفات ، هذه قد يعسر تفسيرها بمعنى يشمل جميع أفرادها ، وذلك لأن المعاني الكلية هذه لا توجد على وجه كلي إلا في الأذهان ، أما في الواقع ، في الوجود ، خارج الذهن ، فإنما توجد مضافة ، توجد منسوبة ، فيقال : رحمة العبد بالعبد ، رحمة الوالد بولده ، رحمة الأم بوليدها ، رحمة الله بخلقه ، ونحو ذلك .
ولهذا ما كان من المعاني الكلية ، فإنه يعسر تفسيره بتفسير جامع ، يصلح لما يتعلق بالمخلوق ، ولما يتعلق بالخالق ، ولهذا

كثير من العلماء ، إذا أتى ذكر تفسير الرحمة ، أو نحوها من المعاني التي هي صفات لله جل وعلا ، فإنهم يقولون : إن الرحمة صفة . ولا يدخلون في تفسيرها ، وهذا معنى قول السلف : أمروها كما جاءت ؛ لأن تفسيرها قد يلحظ فيه المفسر لها ، ما يتعلق ، أو من تعلقت به الرحمة ، وقد يلحظ في ذلك المخلوق ، ولهذا ضل من ضل من المبتدعة ، حيث فسروا الرحمة بالرحمة في المخلوق ، فقالوا : الرحمة المعقولة هي ، ميل القلب لمن يرحم وهذا التفسير إنما نظروا إليه من جهة تعلقه بالبشر ، وهذا من الأغلاط الكبيرة في تفسير هذه المعاني ، الصفات التي هي ليست ذوات ، يمكن أن تحد ، إنما هي معاني ففسروها ببعض من تعلقت به ، وهو المخلوق ، ولما استحضروا ذلك ، قالوا : إذًا لا تصلح وصفا لله جل وعلا ، وهم لم يفسروا الرحمة من جهة المعنى الكلي العام الذي يصلح لكل من أتصف بها ، وإنما فسروها ببعض من أتصف بها ، وهو المخلوق ، ثم سعوا في نفيها عن من اتصف بها ، أيضا وهو الخالق سبحانه ، ولهذا يحرفون ويقولون : إن الرحمة هي إرادة الإحسان إلى الغير . وهم ـ أعني الأشاعرة والماتريدية والكلابية ونحوهم ومن شابههم ـ هؤلاء فسروها بهذا التفسير ؛ لأن الإرادة عندهم صفة دل عليها العقل ، وهم يثبتون سبع صفات ، وكل صفة في القرآن ليست من الصفات السبع التي يثبتونها لدلالة العقل ، فإنهم يرجعون تفسيرها في القرآن إلى أحد الصفات السبع المذكورة عندهم لدلالة العقل ، فيقولون : هنا الرحمة إرادة الإحسان ، الغضب إرادة الانتقام ، الرضا إرادة الإنعام ، ونحو ذلك ، فهم يفسرون هذه بالإرادة ؛ لأن الإرادة احد الصفات السبع التي يثبوتنها ، وهذا مصير منهم إلى أنها في هذه الآية ، وما شابه ذلك ، أن ذلك مجاز ، مجاز عن الإحسان ، أو إرادة الإحسان ، وهاهنا تنبيه بهذا المقام ، للمناسبة ، وهو أن المجاز في الصفات ممتنع باطل ، وذلك لأن أهل المجاز ، يعرفون المجاز : بأنه نقل اللفظ من وضعه الأول إلى وضع ثاني لمناسبة بينهما . فهم يشترطون أن يكون الوضع الأول للفظ معلوم ، ولهذا ينقلونها من الوضع الأول إلى الوضع الثاني لمناسبة ، وباطل أن يكون الوضع الأول في اتصاف الله جل وعلا بالرحمة ، معلوم للمخلوق على وجه الكمال ، وإنما يعلم منه ما دل عليه المعنى ، يعلم بعض المعنى ، وأما الرحمة في معناها الكامل التي هي وصف لله ، فإن هذا لا يُعلم ، ولهذا امتنع أن يكون الوضع

الأول معلوما ، لهذا بطل دعوى المجاز في كل الصفات ؛ لأن الوضع الأول ـ على حد تعريفهم ـ ليس معلوما فيمتنع الانتقال ، كما هو قول المحققين من أهل اللغة ، وأهل التفسير ، وطوائف كثيرة من العلماء . هذه إشارة لهذه المسالة العظيمة .

قال سبحانه وتعالى بعد ذلك : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ وهذا نعت بعد النعوت السالفة ، ومالك يوم الدين ، مالك من أسماء الله جل وعلا ، فهو المالك سبحانه ، فهنا سمى الله جل وعلا نفسه بخمسة أسماء :

الأول : انه الله . الثاني : أنه الرب ، أو رب العالمين . الثالث : أنه الرحمن الرابع : أنه الرحيم . الخامس : أنه مالك يوم الدين .

وهذه الأسماء الخمسة إذا تأملت تتفرع عنها ، من حيث المعنى جميع الأسماء ، فقد ذكرت لك أن أسماء الله جل جلاله ، منها ما هو راجع إلى معنى الجلال ، ومنها ما هو راجع إلى معنى الجمال ، ومنها ما هو راجع إلى معنى الربوبية ، ومنها ما هو راجع إلى معنى الألوهية ، وهنا الربوبية ذكرت بقوله : ﴿ **رب العالمين** ﴾ وذكرت بقوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ ، ونعوت الجلال هنا ذكرت بقوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ **؛** لأن هذا يورث إجلاله جل وعلا ، والهيبة منه والخوف ، والوجل منه ، وكذلك صفات الجمال في قوله : ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ ، كذلك الصفات الراجعة إلى الألوهية بذكر اسمه الله ، الذي هو أعظم الأسماء .

فإذا في هذا السورة أصول الأسماء الحسنى ، كما يقوله ابن القيم ، رحمه الله تعالى

وشيخه شيخ الإسلام ، وجماعات كثيرون ، من المحققين قفي مسائل الأسماء والصفات .

هنا قال : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ أولا : من حيث صفة الله جل وعلا ، هذا يبعث ذكر أنه مالك ليوم الدين ، يبعث ، ولا شك ، على الخوف ؛ لأن يوم الدين هو يوم الجزاء ، يوم الحساب ، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله .

فقوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ هذا مورث للخوف لمن عقله ، فمن قالها يتذكر ما في قلبه من أنواع الشبهات ، وأنواع الشهوات ، التي منعت استسلامه الكامل لربه جل وعلا ، فإذا كان يعقل ما يقول ، فسيورثه ذلك خوفا من ذلك اليوم ، الذي يحاسب الله جل

وعلا فيه الخلائق ، ولهذا قال العلماء : إن الله جل جلاله ، بدأ في هذه السورة بذكر ما يحصل به العبد ، أو بذكر ما يورث في العبد المحبة لله ، وهو ربوبية الله جل وعلا للعالمين ، وذكر بعضها ، ما يبعث الرجاء في القلب بقوله :
 الرحمن الرحيم ، ثم ذكر ما يبعث الخوف في القلب ، وهو قوله : **مالك يوم الدين** ، وسيأتي عند قوله : **إياك نعبد** سبب ذكر هذه الثلاث مجتمعة في هذه الآيات المتتابعة .
قال هنا : **مالك يوم الدين ،** وقد قرأت **ملك يوم الدين** ، ومالك من أسماء الله الحسنى ، وملك كذلك من الأسماء ، من أسماء الله جل وعلا ، وهناك فرق بينهما : فمالك ، من المِلك ، أو من المَلك ، وهو تملك الأشياء ، وملك الأشياء بأن تكون ملكا له ، كما تعقل من قولك : ملكت البيت ، وملكت الكتاب .
وأما ملك ، فهو من المُلك ، والمُلك معناه السيادة ، والتدبير ، والتصرف ـ قد لا يكون الملك ، أو ذو المُلك ، قد لا يكون مالكا للأعيان ملكا ، ولكن ينفذ فيها تصرفه ، ويسووها ويدبرها .
والله جل جلاله موصوف بالصفتين ، ومسمى بالاسمين ، وهذا أبلغ ما يكون ، فإذا تعلق قلب بشر ، بما يراه في ملوك الدنيا ، من سعة ملك ، والتدبير ، والأمر والنهي ، والطاعة لهم ، وما يحدثون في ذلك من أنواع الهيبة ، أو الإنعام ، أو نحو ذلك ، فإنهم يتقاصرون مهما بلغوا في ذلك ، عن أن يكونوا مالكين ، وأن يكونوا ملوكا .
وهنا قال : **مالك يوم الدين** فهو يملكه ملكا وأيضا هو ملك جل وعلا في ذلك اليوم ، فقوله هنا : **مالك** فيه رعاية لهذا المعنى ، وهو أن كل شيء في ذلك اليوم يملكه سبحانه ، ومعنى ذلك أنه إنما يرجع إليه ، له جل وعلا ، يتصرف فيه ، ينفذ فيه أمره ، لا يتصرف ، ولا يفعل شيء إلا من بعد إذنه ، فإذا كان ثم تعلق بمن تعلق بغير الله جل وعلا ، فإن قوله : **مالك يوم الدين** كما نبه إمام الدعوة ، رحمه الله في تفسير هذه السورة ، قال : (في هذا إبطال لتعلق القلب بغير الله من الصالحين والأنبياء والمعبودين الذين يطمع الطامع في شفاعتهم) ، فإن الله جل جلاله ، قال في ذكر يوم الدين ، **يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا والأمر يومئذ لله ،** **نفس عن نفس شيئا** أي نفس ، عن أي نفس شيئا ، لا تنفعها بشيء ، ولا تدفع عنها شيء ، والمُلك والمالك لذلك هو الله جل وعلا ، **والأمر يومئذ**

لله ﴿ ، وهذا فيه إحداث لتعلق القلب بالله جل وعلا وحده ؛ لأنهم إنما طمعوا في أن يكون أولئك يشفعون ، ويقربونهم من الله ، وهذا كله باطل بقوله : ﴾ **مالك يوم الدين** ﴿ .

﴾ **يوم الدين** ﴿ **، لفظة أو كلمة الدين ، جاءت في القرآن على معاني ، وأصلها في اللغة من العادة المتكررة ، قال الشاعر :**

تـقـول وقـد وضـعـت لـهـا وضـيني هذا ديـنه أبـدا وديـنـي

لهذا ذكر شيخ الإسلام في قاعدة له في معنى الدين : أن أصل الدين في اللغة ـ وهذا الكلام صحيح موافق لعلماء الكلام بالعربية ـ أن أصله العادة متكررة ، وسمي ما يجعله المرء في قلبه من العقائد ، أو ما يجعله المرء على لسانه من الأقوال ، أو ما يعمله بجوارحه من العبادات ، سمي مجموع هذا دينا ؛ لأنه يفعل على وجه العادة والتكرر ؛ لأنه دين يتكرر بالفعل ، هذا أحد الإطلاقات ، فالدين يراد به ما يلتزمه المرء من الاعتقاد ، أو القول ، أو العمل ﴾ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴿ .

أيضا يطلق الدين ، ويراد به الجزاء ، وذلك في آيات منها هنا ، قوله : ﴾ **مالك يوم الدين** ﴿ **،** ومنها قوله تعالى : ﴾ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق** ﴿ يعني جزاءهم الحق ، فالدين يأتي في القرآن بمعنى الجزاء في آيات كثيرة ، وهناك صلة بين معناه بمعنى الجزاء ، والأصل اللغوي الذي هو العادة أو الشيء المتكرر ، ووجه الصلة أن الجزاء يتكرر بتكرر العمل ، ويطلق على الجزاء المتكرر دينا ، إذا كان أصله الذي يجازى عليه ، متكررا متنوعا .

قال هنا : ﴾ **مالك يوم الدين** ﴿ ، وهو يوم الجزاء ، والحساب ، ويوم الدين من أسماء يوم القيامة ، وليوم القيامة أسماء كثيرة في القرآن ، معلومة ، ويوم الدين ليوم القيامة ، المقصود منه يوم يقوم الناس لرب العالمين ، مع أن يوم القيامة يشمل ما بين النفخة الأولى ، في الصور إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، هذا كله يوم القيامة من النفخة الأولى إلى النفخة الثانية وما بعدها إلى دخول أهل الجنة الجنة ، ودخول أهل النار النار ، فكل ما يحدث إذ ذاك فالمالك له الله جل جلاله ، كما قال سبحانه : ﴾ **لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب** ﴿ .

وإذا كان كذلك فقوله هنا : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ إنما يعني به يوم الجزاء ، وهو يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يعني حين يصلون إلى أرض المحشر ، فهناك الملك يومئذ لله وحده لا شريك له ، وما قبل ذلك لاشك الملك لله ، فما فائدة التخصيص ؟ الله جل جلاله مالك للدنيا ، وللآخرة ، مالك لما كان قبل النفخة الأولى ، وما بعدها ، ولما قبل النفخة الثانية ، وما بعدها ، فما فائدة التخصيص بيوم الدين ؟ فائدة التخصيص أن يوم الدين : هو يوم المجازاة ، يوم الحساب ، يوم يوفى كل عامل عمله ، يوم توفى كل نفس ما عملت ، وهذا تتعلق به النفوس ، وإن كان كذلك ، فإن من كان مالكا لليوم الذي يوفى فيه العامل عمله يحدث له تعلقا به من جهة النظر إلى ذلك اليوم ، فيكون قد جمع في قلبه بين نظره في الدنيا ، ومحبته في الدنيا ، وعبادته في الدنيا ، وبين تعلق قلبه في الآخرة، فهو إذا كرر هذا ، نظر إلى هذا المعنى .
أيضا من أوجه التخصيص أن قوله : ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ في مقام أن يحضر في قلب العبد المؤمن وهو يتلو هذه الآية ما يحصل في يوم الدين من جميع الأحوال ؛ لأنه قال ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ واليوم يحص فيه جميع تلك الأمور ، من وصول الناس إلى المحشر ، بل وما قبل ذلك من قيامهم من قبورهم ، بل وما قبل ذلك إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . فكأن المتدبر المتأمل إذا قرأ ذلك استحضره بتفاصيله أمامه . وهذا يبعث على خوف مجدد غير الخوف الذي اُستفيد من قوله (مالك) ، ولاشك .
وهذا يفيدنا في تفسير قوله : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ وهذا هو الغرض ، هو الذي بفهمه وبتدبره يحصل المقصود ؛ لأن الرسل إنما بُعثت لترشد العباد لعبادة الله وحده دونما سواه .
فهنا قال : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ فأولا أثنى على الله جل وعلا بأنواع الثناء ثم قال (إياك نعبد) وهذا أول فعل : نعبد إياك . وأول أمر في القرآن : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ والعبادة هي المقصودة في هذا المقام ؛ لأن الابتلاء إنما حصل في عبادة الله جل وعلا، هل يعبد العباد ربهم وحده دونما سواه أو يشركون به ؟ فهنا في قوله : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ جاءت بعد ما سبق ، لمَّ ؟ قال أهل العلم : لأن العبادة لها أركان ثلاثة ، عبادة الله لها أركان ثلاثة بمجيئها مجتمعة تكون العبادة موجودة شرعا ، وتلكم الأركان الثلاثة هي : الحب ، والخوف ، والرجاء . فالعبادة إنما تقوم إذا

كان القلب محبا راجيا خائفا . أرأيت المصلي مثلا إذا صلى فإنه صلى وهو يلحظ محبته لربه جل وعلى ، وهو يلحظ رجائه في ربه جل وعلا أن يتقبل منه وأن يثيبه ، وهو يلحظ الخوف منه جل وعلا أن يعاقبه لو ترك الصلاة أو فرط فيها في يوم الدين .
فالعبادة إنما تقوم على هذه الثلاثة ، لابد من وجود الثلاثة : أصل الحب ، أصل الرجاء ، أصل الخوف ، فلو لم يوجد واحد منها صارت العبادة غير موجودة شرعا ، وإن وجدت واقعا لكنها شرعا ليست موجودة .
هنا ننبه : لما قال هنا : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ ذكرنا أنه فتح باب المحبة ، قال ﴿ **الرحمن الرحيم** ﴾ فتح باب الرجاء ، قال ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ فتح باب الخوف ، فالعبد يقول (إياك نعبد) إن كان يعقل وقد قام في قلبه ما قام من المحبة والخوف والرجاء . فالله جل جلاله من رحمته بالعبد أنه وجهه لقوله (إياك نعبد) وهو يخاطب ربه جل وعلا بعد أن ذكر الآيات التي تبعث في قلبه المحبة والرجاء والخوف ، حتى يكون قوله ذلك آتيا على وفق الشرع .
﴿ **إياك نعبد** ﴾ هنا : قال العلماء (إياك) هذا مفعول به مقدم ، وضمير منفصل قُدم ، والأصل أن المفعول به يتأخر عن الفعل ، وهنا قدمه على الفعل ، وفي تقديمه على الفعل فوائد ، منها : الحصر والقصر . وهذا مقرر في علم المعاني من علوم البلاغة (مبحث الحصر والقصر) ، وكذلك في أصول الفقه في (مبحث مفهوم المخالفة) . قال : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ معناه : أقصر وأحصر عبادتي . بل نقصر ونحصر عبادتنا فيك . قال بعض أهل العلم : يفيد التخصيص . وهو المعنى نفسه ، يعني نجعل عبادتنا مختصة بك وحدك .
فقولـه : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ هذا فيه توحيد العبادة بظهور . العبادة ما هي ؟ العبادة في اللغة : الخضوع والذل . أو الذل وحده . ولهذا قالوا :
بعير معبد إذا طلي بالقطران ، وأفرد فصار ذليلا بانفراده .
صار خاضعا ذليلا لانفراده . ومنه قول طرفه في معلقته :
إلى أن تحامتني العشيرة كلها وأفردت إفراد البعير المعبد
وقيل أيضا للطريق ـ كما هو مشهور ـ طريق معبد إذا ذلل بكثرة وطء الأقدام عليه ووطء الحوافر والمسير عليه . ومنه أيضا قول طرفه في المعلقة نفسها قال :

تباري ـ في وصف نوقٍ ـ قال :
تباري عتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفا وظيفا فوق مورٍ معبد
المور : الطريق . معبد من كثرة ما وطئ .
قال العلماء : العبادة في الشرع : غاية الحب مع غاية الذل ، كما ذكر ابن القيم في النونية ، وذكره غيره أيضا .
شيخ الإسلام ، رحمه الله ، يعرف ـ كما هو مشهور ـ العبادة بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة .
أما الأصوليون ، فيعرفون العبادة بأنها : ما أُمر به من غير اضطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي . وكل هذه صحيحة تصدق على العبادة .
فقوله هنا : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ يعني نفردك بالعبادة دونما سواك ، فلا نعبد إلا أنت ، وهذا فيه توحيد العبادة كما هو ظاهر . إذاً فالمشرك الذي أشرك بالله وعبد معه غيره إذا قال : إياك نعبد . يكون صادقا أو كاذبا ؟ يكون كاذبا . ولهذا الكفار والمشركون هم أعظم الكذبة على الله جل وعلا وأعظم الكذبة على أنفسهم . لهذا قال تعالى في سورة الأنعام :
﴿ **انظر كيف كذبوا على أنفسهم** ﴾ فهو يشرك بالله ومع ذلك يقول في الصلاة
﴿ **إياك نعبد** ﴾ . أنت عبدت ، دعوت غير الله ، وذبحت لغير الله ، واستغثت بغير الله ، ونحو ذلك . فكيف لا تعقل معنى (إياك نعبد) ؟ وهذا من أعظم البلاء أن يكون الإلف للقرآن أو للفاتحة أو لكلمة التوحيد أو للشهادة بأن محمد رسول الله ، يمنع من تعقل معناها حتى غدا من يتكلم باللسان العربي لا يعقل معاني ما يتكلم به أو ما يسمع من القرآن .
قال : ﴿ **إياك نعبد** ﴾ وهذا فيه أفراد الله جل وعلا بالألوهية . ثم قال : ﴿ **وإياك نستعين** ﴾ وهذا فيه إفراده جل وعلا بالاستعانة .
وهنا قال العلماء : (وإياك نستعين) هذا أُخرت الاستعانة مع أن طلب العون يكون من جهة الرب ، فرجع إلى معنى الربوبية ، فهنا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ لمناسبة عظيمة وغرض عظيم . وذلك أن العبد الموحد الذي يقول (إياك نعبد) لا يمكنه أن يوحد إلا بأن يكون مستعينا بالله جل وعلا وحده في ذلك . وإلا فإن الشياطين تكتنف وتستحوذ على البشر . فهنا قال : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ في آية واحدة معطوفة بالواو ، يعني :

إياك نعبد فلا نعبد إلا أنت وحدك دونما سواك ، وإياك وحدك نستعين في أمورنا كلها وأخصها عبادتك وحدك دونما سواك .
وهنا يستحضر الموحد عظم حاجته إلى ربه جل وعلا في أن يثبته على توحيده جل وعملا ؛ لأنه لا يمكن أن يثبت في توحيد الله إلا بعون من الله ، فيذهب مع قول العبد في صلاته (وإياك نستعين) يذهب كل إعجاب بالنفس ، وتذهب كل ثقة بالنفس ، ويكون العبد مخليا نفسه وقلبه مع ربه جل وعلا وأنه لا غنى له عن الله جل وعلا طرفة عين . نعم إن إفراد الله جل وعلا بالعبادة ، وإفراده جل وعلى في طلب الاستعانة في جميع الأمور ، هذا سر أعظم ومطلوب أعظم ، ومن تحقق له تحقق له الخير الأعظم .
قال جل وعلا بعدها : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ اهدنا الصراط المستقيم ، اهدنا يا الله ، اهدي : دعاء ، وهو فعل أمر ، وفعل الأمر ـ كما هو متقرر ـ إن كان لمن هو أرفع من الآمر فإنه يكون دعاء ، وإن كان لقرين فإنه التماس ، وإن كان لمن هو دونه صار أمرا .
فهنا قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ الله جل وعلا من رحمته بالعبد أن أنزل هذه الآيات لكي ندعو بها ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ والهداية هنا مطلوبة من الله جل وعلا ، حقيقة الهداية أنها الدلالة والإرشاد ، في اللغة . هدى : يعني دل وأرشد .
وهي في نصوص القرآن أربعة أنواع ، الهداية في القرآن أربعة أنواع :
هداية غريزية ، بمعنى هداية الله جل وعلا الخلق لما يصلح لهم غريزة ، وهذا كقوله جل وعلا : ﴿ **الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى** ﴾ .
الثانية : الهداية بمعنى الدلالة والإرشاد لما يصلح في أمر الدين . الأولى غريزية فيما يصلح في أمر الدنيا . وهذه دلالة وإرشاد لما يصلح في أمر الدين . كما في قوله جل وعلا لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ **وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم** ﴾ وكقوله : ﴿ **ولكل قوم هاد** ﴾ ونحو ذلك . وهذه دلالة الهداية والإرشاد يملكها الرسل ، يملكها العلماء ، يملكها الدعاة .
الثالث من أنواع الهداية في القرآن : الهداية التي هي التوفيق والإرشاد ، نتيجة الدلالة دل وأرشد ، فهل يقبل أم لا يقبل ؟ يحتاج في القبول إلى توفيق ، ولهذا قيل : هداية توفيق ، يعني نتيجة للهداية التي سبقت ، وهي هداية الدلالة والإرشاد ، وهذه كما في

قوله : ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء** ﴾ يعني : لا توفق من أحببت ولكن الله يوفق من يشاء . هذا النوع الثالث .

وأما الرابع ، وهو أعظمها وأجلها وغاية جميع أنواع الهدايات : وهو الهداية إلى طريق الجنة ، والهداية إلى طريق النار . هداية المؤمنين إلى طريق الجنة ، كما في قوله تعـالى : ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم** ﴾ ، قال العلماء : قال عنهم إنهم قتلوا ﴿ **والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم** ﴾ .... الاستقبال وهم قد قُتلوا ، فالهداية ليست هداية الدنيا وإنما هي هداية الآخرة . قال أهل التفسير : سيهديهم إلى طريق الجنة ، نسأل الله الكريم من فضله .

وكذلك الهداية إلى طريق النار ، قال جل وعلا : ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ والعياذ بالله . ﴿ **وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار** ﴾ نسأل الله العافية . فهذه أربعة أنواع . فقول القائل : (اهدنا الصراط المستقيم) يشمل الأنواع الثلاثة : الثاني والثالث والرابع . ولكل تفسير . أما الثاني : وهي هداية الدلالة والإرشاد ، فالعبد إنما قال ذلك بعد أن هُدي ، يعني بمعنى أنه بُين له وأرشد ودُل على الإسلام ، فالمصلي يتلو هذه الآية وهو من أهل الإسلام ، لكن يدخل في دعوة الداعي في قولك لربك (اهدنا الصراط المستقيم) أي دلنا وأرشدنا على الصراط المستقيم . كيف يكون ذلك ؟ لأن أمور الصراط المستقيم وأفراده وأنواعه كثيرة لا يمكن إحصاءها ، وهذه يتنافس في معرفتها العلماء . وكل عالم بمسألة قد دُل وأرشد إلى هذه المسألة التي هي من مسائل الشرع الذي هو الصراط المستقيم .

فقول القائل : (اهدنا الصراط المستقيم) يطلب من ربه أن يبين له ويدله على أنواع وأمور الصراط ، بأنواعها وأفرادها وتعددها . ولهذا يقول الداعي في دعائه : اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

أمور الصراط المستقيم متعددة : مستحبات ، مكروهات ، واجبات بأنواعها ، محرمات ، أنواع العلم بالله ، أنواع العلم بأحكامه ، أنواع العلم بآثار أسمائه وصفاته في ملكوته ، أمور كثيرة لا يمكن أن يحصيها محصٍ . فالسائل في قوله : (اهدنا) يدعو ربه أن يبين له ذلك . وهذه حاجة من أعظم الحاجات ،

أعظم حاجة نحتاجها أن يبين لنا ذلك ، لكن مع ذلك نسأل الله أن يهدينا بالمعنى الثاني الذي هو هداية التوفيق والإلهام ؛ لأن الدلالة والإرشاد بدون توفيق ولا إلهام ولا تسديد من الله حجة على العبد وليست حجة له . فقول القائل : (اهدنا الصراط المستقيم) بعد أن سأل الله الدلالة والإرشاد ، فهو يسأل الله أن يوفقه لجميع أفراد الصراط المستقيم ، وسيأتي تفسير الصراط إن شاء الله تعالى .

كذلك المعنى الأخير الرابع من أنواع الهداية **اهدنا الصراط المستقيم** الصراط المستقيم صراطان : صراط في الدنيا وصراط في الآخرة ، الصراط في الآخرة له وصف : منصوب على متن جهنم ، أحد من السيف وأدق من الشعر ، على جنباته كلاليب كأمثال شوك السعدان . ونحو ذلك مما جاء وصفه في السنة .

والله جل جلاله قال في سورة مريم : **وإن منكم إلا واردها** ودون الصراط ودون الجسر ظلمة لا يبصر طريق الصراط إلا من أعطي النور الذي يبصر به ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : ((ودون الجسر ـ يعني الصراط ـ ظلمة)) أما الكفار فهم في ظلمة لا يدرون أين الصراط ، وجهنم يجاء بها **وجيء يومئذ بجهنم** لها سبعون ألف زمام تُسحب وينصب عليها الصراط وتجعل حولها الظلمة ، فيأتي الكفار يتهافتون فيها تهافت الفراش . وهذا الصراط الذي هو الطريق من العرصات إلى الجنة منصوب على متن جهنم ، من وصفه : أنه أدق من الشعر وأحد من السيف ودونه الظلمة ، فمن الذي يُهدى ؟ ولهذا لعظم هذا الأمر يقول الأنبياء : ((اللهم سلم سلم)) يقفون قبل الصراط ويقول كل نبي : ((اللهم سلم سلم اللهم سلم سلم)) فالأمر شديد .

فيستحضر الداعي ربه جل وعلا بقوله (اهدنا الصراط المستقيم) يستحضر ذلك الصراط . فثم صراط في الدنيا ، وهو ينتقل بقلبه إلى صراط الآخرة ، يسأل الله أن يهديه ويدله ويرشده على طريق ذاك الصراط ، فيبصره ويمضي فيه على ما قدر الله جل وعلا له من السرعة والمضاء ، وهذه أنواع من الدعاء لو حصلت للعبد لكفى بها . ولهذا يقول العلماء : إن أحوج سؤال سأله العبد ربه جل وعلا هو هذا السؤال (اهدنا الصراط المستقيم) .

ومن رحمة الله جل وعلا بعباده المؤمنين أنهم لا يعلمون ، وجعل لهم هذه السورة التي فيها هذا السؤال العظيم الذي لا يعرف

عظمه وقدره وحاجته ، حاجة العبد إليه ، وبل وحاجة العباد إليه إلا من وفق ، وقليل ما هم .

 اهدنا الصراط المستقيم الصراط المستقيم هنا المراد به صراط الدنيا وصراط الآخرة ، أما صراط الآخرة فقد ذكرت لكم معناه ، أما صراط الدنيا فقد اختلفت أقوال المفسرين من السلف في معناه . فقال بعضهم : الصراط المستقيم هو القرآن ، وقال آخرون : الصراط المستقيم هو الإسلام ، وقال آخرون : الصراط المستقيم السنة ، وقال آخرون : الصراط المستقيم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم . قال العلماء كابن جرير وغيره وابن كثير وشيخ الإسلام وجماعة : كل هذه الأقوال مؤداها واحد ؛ لأن من التزم بالقرآن التزم بالإسلام والتزم بالسنة واتبع النبي صلى الله عليه وسلم . فالعبد يسأل ربه أن يهديه الصراط المستقيم في الدنيا يعني ليهديه إلى الإسلام ، يهديه إلى القرآن ، يهديه إلى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم .

وهاهنا سؤال معروف عند أهل التفسير ، وهو أن العبد المصلي قد هُدي إلى الإسلام ، هدي إلى القرآن ، فكيف يسال هذا السؤال (اهدنا الصراط المستقيم) يعني أرشدنا ودلنا على الإسلام ، أرشدنا ودلنا على القرآن ، أرشدنا ودلنا على السنة ، ارشدنا ودلنا على اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ، فكيف يكون وجه السؤال هاهنا ؟

قال العلماء : إن هذا السؤال سؤال لطلب الثبات على الصراط ؛ لأن المصلي قد حقق الإسلام ، فهو يسأل أن يثبت عليه ، وهذا معروف في الأوامر ، من أمر بشيء قد تحقق به فإن معنى الأمر : أي اثبت عليه . قال تعال : **يا أيها النبي اتقي الله** أي اثبت على تقوى الله جل وعلا **يا أيها الذين آمَنوا آمِنوا** يعني اثبتوا على الإيمان . هكذا قال كثيرون من أهل العلم . وفي هذا الجواب نظر ، والصواب والأصح : الثاني : أن الصراط المستقيم وإن كان الإسلام أو القرآن أو السنة أو اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فإن له تفاصيل ، وذلك أن الصراط المستقيم واسع وثم فيه أمور وتفاصيل . فالإسلام ليس شيئا واحدا ، وإنما هو مبني على أمور ، مبني على أركان خمسه ، وله شعب ، كذلك الإيمان مبني على أركان ستة وله شعب : شعب عقدية ، وشعب قولية ، وشعب عمليه . وهكذا الإحسان ركن واحد ، وأيضا هذا الركن له شعب ، وهكذا .

فأمور الإسلام متعددة ، آيات الله جل وعلا في القرآن التي هي فيها الإخبار ، الأخبار متعددة : أخبر الله بأشياء كثيرة في القرآن ، الأوامر متعددة ، النواهي متعددة . فحين يسأل ، يسأل الله جل وعلا أن يدله ـ كما ذكرت لك آنفا ـ وأن يوفقه لهذه التفاصيل جميعا . وهو سؤال بجميع ما يدخل في أمور الإسلام . ولهذا ليس ثم أحد مستغني عن هذا السؤال . العالم بل الأنبياء يحتاجون هذا السؤال ، فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو ذلك وهو محتاج إليه ، الصحابة يتلون ذلك وهم محتاجون إليه ، كل أحد يتلو هذه الآية ويسأل الله أن يهديه الصراط المستقيم بهذا المعنى بتفاصيله وأنواعه وأفراده ، وكل أحد بحاجة إلى ذلك بحسب حاله .

فإذا تلا التالي هذه الآية ، لا يقول قائل ، أو لا يقول التالي : أنا من أهل الهداية فكيف أسأل . كما هو سؤال ربما ذُكر . لا أنت في أتم الحاجة في أبلغ الحاجة في أعظم الاحتياج والفقر إلى أن تسأل ربك أن يدلك على أمور هذا الصراط المتنوع ، وأن يعلمك ويفهمك ذلك ، ثم يوفقك إلى هذا في الدنيا بالتزامه ، ثم يعطيك جزاءه في الآخرة بالجواز على الصراط .

فكل مسألة نحن بحاجة إلينا من مسائل الصراط ، يوضح ذلك أن الصراط في الآخرة لا يمضي عليه إلا من قوي يقينه ، لا يمضي عليه بسرعة ومضاء سريع إلا من قوي ، وهكذا الناس يخفون في سرعتهم بقدر قوة يقينهم وثباتهم ومعرفتهم بهذا الصراط في الدنيا ، فبقدر معرفته بالصراط في الدنيا وثباته عليه والتزامه به يكون على ذلك الصراط شأنه وحاله يوم القيامة . ولهذا قال العلماء : إن ثم في الدنيا كلاليب تعلق بالقلب ، وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، كما ذكر ذلك ابن القيم في (أول المدارج) قال : فتنبه إذا علقت بقلبك الشبهات أو الشهوات . تنبه وتذكر حين تقول (اهدنا الصراط المستقيم) تلك الكلاليب التي على جنبتي الصراط ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((فمن ماضٍ ـ يعني على الصراط ـ ومن مُسَلم ومن مخدوش ومن مكردَس في النار)) تخطفه ذلك ، فبقدر تعلق الكلاليب في الدنيا ، وهي كلاليب الشبهات والشهوات يكون ذلك ، إن لم يغفر الله ويتجاوز عن عبده . نسأل الله جل وعلا السلامة والعافية .